



الذهب الابيض

الى الفلاح المدرس المصري الهلالي السنوسي
خشية ان يحدث هذا

خليل فاضل

حكى محمد لاييه عن موضوع التعبير . اخرج له الكراس . وقال :
- انظر بابا تسعة من عشرة . . و سطرين تحية وشكر . . .

(ورغم ان الاب كان لا يعرف القراءة الا انه ميز خطوط الاستاذ خير الله الحمراء و رصع بها صدره وانتشى) .

فتح المنديل . اخرج الطعام . بدأ يتناوله مع ولده . تناول القلعة ليشرب . غير انه توقف فجأة ليسأله :
- وعن ايه كان الموضوع ؟!

- عن زراعة القطن بابا . . فـوايده ومشاكله رد محمد بسرعة :
(شدد الولد على كلمة القطن وركز نظرتة على ابيه) .

انزل الاب القلعة . تفصد وجهه بعرق غزير . غصّ حلقه . حدج ولده بنظرة ملأى بالحزن والالام والفضب ، ندت منه آهة مـوجوعة وسأل :
- ويا ترى رحـت الوحدة الصحية اليوم ؟
- لا . . .
- وليه لا . . .
- قلت آجي أقولك الاول . . .
- طيب امشي روح . . .

ترك محمد بقية الطعام . مضى حافيا يجرّ قدميه المشـققتين الحافيتين . يتعثـر في جلبابه متأبطا كراريسه ميمما شطر الوحدة الصحية . . غير من اتجاهه فجأة . انعطف الى البيت . دخل على امه وهي جالسة امام الفرن . تلفح وجهها حرارة النار فيبدو مشتعلـا متأججا . يداها في العجين وفي الحطب وفي النار .

بشت في وجهه . سألته عن احواله . اخبرها عن موضوع التعبير ، ودون أن تستطرد في السؤال قال لها انه كان عن زراعة القطن . فوائده ومشاكله .
اطرقت الأم للحظة . . .
ندت عنها آهة مـوجوعة . رمت بقرص العجين

وقف الاستاذ خير الله امام السبورة . كتب بالخط الرقعي التاريخ الهجري على اليمين ، ثم الميلادي على اليسار ، وتحتها في الوسط خطـ بالنسخ الكبير كلمة « تعبير » . (زراعة القطن في بلادنا . فوائدها . والمشاكل التي تعترضها) .

جلس التلاميذ بجلابيهم الباهتة على الادراج الخشبية المتهاكمة . شرعوا يكتبون ما تسعفهم به الذاكرة . كان الاستاذ قد سهل عليهم المهمة بوضع عناصر الموضوع وانحنى على بعضهم يناقش في همس .

انكبّ التلميذ محمد عبد الحكيم ، الشاحب الوجه الى درجة البياض ، انكب على كراسة التعبير وشرع يخط بخط كالكتوب به المصحف الشريف (هكذا نصحه الخال عبد القادر) ، انكبّ يكتب ويكتب مستخدما الاساليب الجميلة والاستعارات والكنايات ، وكل ما التقطه من قراءاته المتعددة لسير الابطال عنتره بن شداد وسيف بن ذي يزن وغيرهما . أنهى موضوعه بحرص ، وسلم كراسته للاستاذ .

عاد بخطاه الوئيدة ، بقدميه الحافيتين المشـققتين الى درجه المدرسي وانتظر . . .

ناداه الاستاذ خير الله . انفرجت اسارير محمد . لهث وهو ينصت بفرح لا نهائي الى كلمات المديح عن موضوعه التعبيري كأفضل موضوع بالفصل . . خطـ الاستاذ بقلمه الاحمر علامة التسعة من عشرة وذبلها بعبارة ثناء من سطرين . ربت على ظهر محمد مهنا . دق الجرس معلنا انتهاء الحصة . طار محمد كالعصفور خارج المدرسة ، يجر قدميه الحافيتين المشـققتين .

. . . جرى الى الحقل حيث وقف ابوه مستندا على فأسه شامخا في وجهه الشمس ، تتلالا قطرات العرق على وجهه الاسمر . يفتـر ثغره عن ابتسامة فرح . يلتقط انفاسه . يتلقف ابنه في حب غامر . يصحبه بعيدا عن الشمس . تحت الشجرة الكبيرة . يسأله عن اخباره . . .

في حضان الفرن الحامي. أشاحت بوجهها عن ابنها الذي ترك المكان في صمت ... ومضى ..

.....

قوي . هي غريبة شوية . لكن الارشادات الزراعية هتذاع بعد نشرة الاخبار . خمس مرات يوميا . والتقاوى هتوصل قريب مع الخبرا الاجانب)

انفض الجمع . انفرست بويضة البلهارسيا بحدة في مئانة محمد عبد الحكيم . انهمر الدم كالبحر . باتت دورتها الذكر ودودتها الانثى ترتع في كبده . تتناسل وتمتصه . ثبتت ديدان الانكلستوما اسنانها في امعائه امتصت دمه بشيق . اختلط دمه ما بين قلبه ورثتيه . اضطرب . اغلق ملحج القطن بالمركز . مسرح عمال الغزل والنسيج في الشوارع . تورمت عينا سعاد اكثر . سحتا صديدا ملتهبا بحثت ام محمد عن الحطب . لاحت لوزة القطن في عيني ابي محمد الدامعتين . بث الراديو الارشادات والاخبار والاغاني والقرآن الكريم . وعم الفلاحين هم فظيع ..)

★ ★ ★

مضى محمد عبدالحكيم يجري بقدميه الحافيتين المشققتين . يهرول . يتعثر في جلبابه . ينكفيء . ينهخر . يجمع كرايسه . ينظر خلفه . قلبه يدق كوابور الطحين . يزداد وجهه شحوبا . يتقطع تنف . وراءه سعاد . تزداد عيناها تورما . تستحان صديدا يبلل هدمتها البالية . يدخلان الى مبنى الوحدة الصحية . يناوله العم حسين الاناء . يتبول محمد فيه دما . يكشف الطبيب على سعاد . يتناول محمد الاناء العم حسين الشارد النظرة . المتجمد الاسارير . صبت البول الدموي في الاناء الزجاجي المخروطي استعدادا لتحليله . تبادل نظرة سريعة مع محمد وسعاد الواقفين في حجرة المعمل انتظارا لاخذ حقن العلاج . اشعل وابور الجاز . غلى فوقه المحقن الزجاجي محدثا قلقلة كسرت الصمت القاتل . من شباك المعمل بدت مساحات الحقول المزروعة بأخر محصول قطن مهجورة . تطلع محمد عبدالحكيم الى وجه العم حسين الهجور من الانفعال . المشحون بالتجاويد .

سأله : - انما قوللي يا عم حسين . شكله ايه الكرز واللا الفراوله دي ؟!

ضحك العم حسين عاليا . صمت . اشار باصبعه الضخم الى اتجاهين محددين وقال :
- ما اعرفش يا بني . بس سمعت انه في لون بولك وفي شكل عيون سعاد .

كاسل باد - ايرلندا

في الطريق الترابية ما بين البيت الطيني والوحدة الصحية قابل سعاد . زميلته فسي الفصل المدرسي وجارته وقربيته وكل شيء . لاحظ ان عينيها تنزان صديدا ساخنا . سألها :

- مالك يا بت ياسعاد !!

- عينا يا محمد . انا رايحة الوحدة للدكتور
- وانا كمان رايع . انما دي عينيك حمرة قوي ووارمه وشكلها كده غريب !
- يعني اعمل ايه يا محمد . نصيب ومقدر .

كان محمد مريضا بالقلب . وبالبلهارسيا . وبالانكلستوما .

كان الدم يتفجر من ماسورة البول ولا يهتم . وكان قلبه يضرب كالثور الهائج ولا يسأل . وكان وجهه يشحب لدرجة الموات ولا يعي .

كان يقمي ليستجمع انفاسه . وكان عاجزا عن اللعب مع اقرانه) .

- شفتي اليوم موضوع التعبير اللي كتبته ؟
- شفته يا محمد . مبروك . وايه الفائدة . الدودة وأكلت القطن . واللائت مش عارف ان المحصول كل سنة بيقل ؟!

صمت محمد . كان يعرف . لكنه لم يتوقع الرد . سرّ جادا بذكرته . زاد من تورم قلبه . أحكم وضع الكراسية تحت ابطه . مضى يجري قدميه الحافيتين المشققتين . متعثرا في جلبابه . ينكفيء في التراب . ينهض . ويمضي في طريقه .. الى الوحدة الصحية ..

.....

امام الوحدة الصحية تقع الجمعية الزراعية .

جمع من رجال البلدة يلتفون في شكل دائرة حول مبنى الجمعية . امام المدخل الاسمنتي المرتفع عن الارض . المرشوش بالمياه . يجلس افندي على كرسي وحيد . افندي انيق يلبس نظارة سوداء لامعة . كان يتأني في حديثه . وكان يعدل من وضع رابطة العنق بين الحين والحين . عرفه محمد فورا . انه عبدالله افندي مهندس الارشاد الزراعي . انحشر محمد في الجمع . اصاخ السمع

(طبعا انتم سمعتم الخبر . انا في الحقيقة جاي اقولكم ان زراعة القطن خسرتنا كثير قوي . الحكومة قررت زراعة الكرز . الحكاية مش صعبة